إذن، ماذا يقدم لنا مشهد الثورات العربية في بداية الألفية الثالثة من دلالات عن طبيعة هذه المرحلة من تحول العلاقة بين العرب (قلب العالم الإسلامي الجيواستراتيجي) والعالم وعلى ضوء خبرة ما سبقها من مراحل؟

الحاضر الغائب في كافة الثورات العربية عند اندلاعها هو البعد الخارجي

* فلقد غاب عن خطابات الثوار الذائعة المعلنة، ولكنه كان حاضرًا في مكنونها.

فلقد قامت الثورات ضد نظم مستبدة تابعة للخارج، ولو ادعىٰ بعضها، نظام سوريا مثلا، مقاومته لهذه التبعية، ولم تكن المصالح الوطنية إلا ما يراه قادة هذه النظم وعلىٰ النحو الذي يخدم علاقات التبعية أو حتىٰ علاقات ما يبدو أنه مقاومة لمشروع التبعية.

وكلا الحالتين كانت بالطبع خادمة بالأساس لضمان استمرار النظام المستبد وحماية وجوده، سواء في صورته المندمجة في النظام العولمي بأبعاده السياسية والاقتصادية والعسكرية الأمنية، (**مصر وتونس والبحرين واليمن**)، أو سواء في صورته التي تقع علىٰ الحافة الحرجة (**ليبيا، سوريا**). أما المصالح الوطنية، كما تريدها الشعوب والقوىٰ المعارضة لهذه النظم، فلم تكن حاضرة في حسابات كل من هذه النظم أو القوىٰ الدولية المساندة لاستمرار استبدادها تحت ذرائع عدة لعل من أخطرها: الاستقرار ولكن حمايةً وتأمينًا بالأساس لمصالح هذا الخارج في أوطاننا، أو علىٰ كامل الدائرة الحضارية العربية الإسلامية التي ننتمي إليها.

* وفي المقابل، كان اندلاع الثورات وخاصةً في تونس ومصر أولا، مفاجأة للنظام الدولي السائد لما بعد الحرب الباردة الذي راهن علىٰ عدم اندلاعها أو غيرها. وفي حين تواترت في البداية الاتهامات من جميع قادة النظم المستبدة بوجود قلة مندسة أو بالفزاعات الإسلامية الداخلية والخارجية.

إلا أنه سرعان ما تحول هؤلاء القادة إلىٰ اتهام المؤامرات والضغوط الخارجية، وخاصة الأمريكية الأوروبية، وذلك حين بدأت هذه القوىٰ الغربية تتحول عن المساندة الحذرة للنظم (**بدرجات متفاوتة**) نحو التأرجح بين تأييد حقوق الشعوب وبين مساندة النظم وصولا إلىٰ الدعوة للرحيل أو الانتقال الفوري للسلطة.

* إن قول البعض أن تعاقب وتزامن الثورات العربية ليس إلا دليلا علىٰ مؤامرة خارجية كبرىٰ ضد استقرار المنطقة ولتقسيمها لصالح المشروع الصهيوني والأمريكي، لهي مقولة لا تعي حقائق التاريخ من ناحية (**كما سنرىٰ لاحقًا**). كما أنها انهزامية ورجعية لا تؤمن بقدرة الشعوب علىٰ إمكانية التغيير. وهذا ما نجحت النظم المستبدة طوال أكثر من نصف قرن في غرسه وتكريسه في نفوس شعوبها، فإما قبول الاستبداد للحماية من التهديد الخارجي وإما الوقوع في براثن المؤامرات الخارجية وتهديدات الإسلام المتطرف والفوضىٰ وعدم الاستقرار بكافة أشكالها. وفي حين كان يتأكد للشعوب وبالتدريج

خطأ هذه التوجهات، كانت تزداد قناعة النظم وحلفائهم في الخارج أن هذه الشعوب قد ماتت.

* إلا أن اندلاع الثورات العربية، علىٰ النحو الذي قامت عليه جميعًا (**ولو بدرجاتٍ متنوعة**)، أي كونها ثورات شعبية بدون قيادة واحدة واضحة المعالم أيديولوجيًا وحركيًا، ولكونها ثورات سلمية تواجه بطش الآلة الأمنية القمعية للنظم، هذا النمط من الثورات علىٰ هذا النحو، كسر حلقة مفرغة دارت فيها هذه الشعوب لعقودٍ طويلة، وأثبتت أنها ما زالت حية وقادرة علىٰ الفعل، وابتداءً من الداخل أساسًا. والأهم أنها أثبتت أن البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الداخلية للنظم المستبدة، وفي تحالفاتها مع نظائرها الخارجية، لم يعد بمقدورها الاستمرار، بعد أن وصلت إلىٰ ذروتها. حيث أفرزت خمائر الثورة وولدت حالة ثورية كامنة كانت تنتظر الانفجار.

ولذا؛ لقد كان الداخل –ابتداءً– هو المناط وهو المنطلق وهو الغاية لهذه الثورات، سواء في الدوافع المعلنة أو

الأهداف المحددة، ناهيك بالطبع عن كونه المحرك، ولكن ظل الخارج مستبطنًا مما يدل علىٰ الذكاء الفطري لهذه الثورات، حتىٰ أطاحت بعضها برأس النظام (**مصر وتونس**) وحتىٰ تعرضت بعضها لمخاطر الحرب الأهلية (**اليمن وسوريا**)، أو تعرضت كما حالة ليبيا لدعوة الخارج للتدخل العسكري حمايةً للثوار أو تعرضت كحالة البحرين للتدخل العسكري الخليجي لقمع الثوار؛ وهنا بدأت تظهر صراحة أنماط من التدخل الخارجي.

فلقد كان المناط لدىٰ هذه الشعوب هو مدىٰ صمودها وإصرارها وإرادتها الوطنية علىٰ إسقاط النظم، غير آبهة لما يشغل النخب والمراقبين والمحللين من أمور تأثير الخارج وتدخلاته الجارية أو المرتقبة. ومن ثم، فإن من أهم الدلالات الحضارية للثورات العربية في علاقتها بالخارج، أنها ستصبح منطلقًا للتأريخ لتطوراتنا من تواريخنا، بعد أن اعتدنا طويلا التأريخ بتواريخ غيرنا.

إلا أن هذا الخارج، وإن فوجئ بهذه الثورات، علىٰ الأقل الأولىٰ والثانية منها واللتان نجحتا في إسقاط رؤوس النظام

بسرعة نسبية وعلىٰ نحوٍ سلمي، إلا أن الخارج أخذ يتأهب بحسابات وسيناريوهات للتعامل معهما من ناحية، ولإدارة ما اندلع بعد ذلك من ثورات من ناحية أخرىٰ.

بعبارة أخرىٰ، وإن كنا ننفي أن يكون اندلاع الثورات مؤامرة خارجية فهذا لا يمنع من الاعتراف بأن زخم خطابات وسياسات حقوق الإنسان العالمية والآليات العولمية لأدوات التمكين والتواصل الحديثة، قد مارست تأثيرها في بيئة اندلاع الثورات وأدواتها، إلا أنه علىٰ جانب آخر يجب أن نؤكد علىٰ ضوء الخبرة التاريخية لهذه الأمة والمليئة بالتدخلات الخارجية أن الخارجي لابد أن يمارس تأثيراته عليها من ناحية كما لابد وأن تمارس هذه الثورات تأثيراتها علىٰ توازنات القوىٰ الإقليمية والعالمية من حولها. (**كما سنرىٰ لاحقًا**) .

* * *